انتشار الاسلام

سرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ

هذا فصل من رسالة التوحيد للاستاذ الامام أكرم الله مثواه ، قال : —

كانت حاجة الامم الى الاصلاح عامة فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك، لكن يدهش عقل الناظر في أحوال البشر عند ما يرى أن هذا الدين يجمع اليه الامة العربية من أدناها الى أقصاها في أقل من ثلاثين سنة ، ثم يتناول من بقية الامم ما بين المحيط الغربي وجدار الصين في أقل من قرن واحد ، وهو أمر لم يعهد في تاريخ الاديان، ولذلك ضل الكثير في بيان السبب،واهتدى اليه المنصفون فبطل العجب

ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان ، ولقي من أعداء أنفسهم أشد ما يلقى حق من باطل : أوذي الداعي صلى الله عليه وسلم بضروب الايذاء ، وأقيم في وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب لولا عناية الله، وعذب المستجيبون له وحرموا الرزق، وطردوا من الدار ، وسفكت منهم دماء غزيرة . غير أن تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور الصبر، يثبت الله بمشهدها المسيقنين ، ويقذف بها الرعب في أنفس المرتابين، فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب، وهي ذوب ما فسد من طباعهم ، فتجري من مناخرهم جري الدم الفاسد من المفصود على أيدي الاطباء الحاذقين (٨ : ٣٧ ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون)

تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام ليصدوا نبتته ، ويخمدوا دعوته . فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للاقوياء، والفقير الاغنياء، ولا ناصر له الا أنه الحق بين الاباطيل، والرشد في ظلمات الاضاليل، حتى ظفر بالعزة ، وتمرز بالامة ، وقد وطيء أهل الجزيرة أقوام من أديان أخر كانت تدعو اليها وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره ومع ذلك لم يبلغ بهم السعي نجاحا ، ولا أنالهم القهر فلاحاً

ضم الاسلام سكان القفار العربية الى وحدة لم يعرفها تاريخهم ولم يعهد لها نظير في ماضيهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أبلغ رسالته بأمر ربه الى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والروم . فهزؤا واشمأزوا وناصبوه وقومه الشر وأخافوا السابلة وضيقوا على المتاجر ، فغزاهم بنفسه . وبعث اليهم البعوث في حياته . وجرى على سنته الأئمة من صحابته . طلبا للامن وابلاغاً للدعوة . فاندفعوا في ضعفهم وقلتهم يحملون الحق على أيديهم . وانهالوا به على تلك الامم في قوتها ومنعتها ، وكثرة عددها ، واستكمال أهبتها وعددها . فظفروا منها بما هو معلوم . وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها واستقر السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين ، وأباحوا لهم البقاء على اديانهم وإقامة شعائرها آمنين مطمئنين ، ونشروا حمايتهم عليهم يمنعونهم مما يمنعون منه أهليهم وأموالهم ، وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزءاً قليلا من مكاسبهم على شرائط معينة

كانت الملوك من غير المسلمين اذا فتحوا مملكة أتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة الى دينها ، يلجون على الناس بيوتهم ويغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر ، وبرهانهم الغلبة ، وحجتهم القوة ، ولم يتم ذلك لفاتح من المسلمين ولم يعهد في تاريخ فتوح الاسلام أن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة يأخذون على أنفسهم العمل في نشره . ويقفون مسعاهم على شرعة أحد من غير المسلمين ، بل كان المسلمون يفخرون بمجاملة من عداهم ومجاملتهم في المعاملة ويشهد العالم أجمعه أن الاسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلا واحسانا ، بعد ما كان يعدها الاوربيون خرقاً وضعفا

رفع الاسلام ما ثقل من الإتاوات ، ورد الاموال المسلوبة الى اربابها ، وانتزع الحقوق من مغتصبيها ، ووضع المساواة في الحق عند التقاضي بين المسلم وغير المسلم . بلغ أمر المسلمين فيما بعد أن لا يقبل اسلام من داخل فيه الا بين يدي قاض شرعي باقرار من المسلم الجديد أنه أسلم بلا اكراه ولا رغبة في دنيا . وصل الامر في عهد بعض الخلفاء الامويين أن كره عمالهم دخول الناس في دين الاسلام لما رأوا أنه ينقص من مبالغ الجزية ، وكان في حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لا محالة ، ولذلك أمر عمر بن عبد العزيز بتعزير مثل أولئك العمال (١)

(١) شكا اليه عامله بمصر ذلك فأجابه « ان محمداً (ص) بعث هادياً ، ولم يبعث جابياً »

عرف خلفاء المسلمين وملوكهم في كل زمان ما لبعض أهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة في كثير من الاعمال فاستخدموهم وصعدوا بهم الى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش في اسبانيا . اشتهرت حرية الاديان في بلاد الاسلام حتى هجر اليهود أوربا فرارا منها بدينهم الى بلاد الاندلس وغيرها

هذا ما كان من أمر المسلمين في معاملتهم لمن ظاهرهم سيوفهم: لم يفعلوا شيئا سوى أنهم حملوا الى أولئك الاقوام كتاب الله وشريعته، وألقوا بذلك بين أيديهم وتركوا الخيار لهم في القبول وعدمه ، ولم يقوموا بينهم بدعوة ، ولم يستعملوا لاكراههم عليه شيئا من القوة ، وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه ، فما الذي أقبل بأهل الاديان المختلفة على الاسلام وأقنعهم أنه الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه أفواجا ، وبذلوا في خدمته ما لم يبذله العرب أنفسهم ؟

ظهور الاسلام على ما كان في جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية ، وتغلبه على ما كان فيها من رذائل الاخلاق وقبائح الاعمال ، وسيره بسكانها على الجادة القويمة ، حقق لقراء الكتب الالهية السابقة أن ذلك هو وعد الله لنبيه ابراهيم واسماعيل، وتحقيق استجابة دعاء الخليل (٢ : ١٢٩ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) وأن هذا الدين هو ما كانت تبشر به الانبياء أقوامهم من بعدهما ، فلم يجد أهل الصفة منهم سبيلا الى البقاء على العناد في مجاحدته فتلقوه شاكرين ، وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين ، أوقع ذلك من الريب في قلوب متقادميهم ما حركهم الى النظر فيه ، فوجدوا لطفا ورحمة ، وخيرا ونعمة ، لا عقيدة ينفر منها العقل وهو رائد الايمان الصادق ، ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية وهي القاضية في قبول المصالح والمرافق ، رأوا أن الاسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت يكاد يعلو بها عن العالم السفلي ويلحقها بالملكوت الاعلى ، ويدعوها الى إحياء ذلك الشعور بخمس صلوات في اليوم ، وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبات ، ولا يفرض من الرياضات وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه ، ويعد برضا الله ونيل ثوابه حتى في توبة البدن حقه ، متى حسنت النية وخلصت السريرة ، فاذا نزت شهوة أو

غلب هوى كان الغفران الالهي ينتظره متى حصلت التوبة ، وكانت الاوبة ، تبدت لهم سذاجة الدين عند ما قرؤا القرآن ونظروا في سيرة الطاهرين من حامليه اليهم، وظهر لهم الفرق بين ما لا سبيل الى فهمه ، وما تكفي جولة نظر في الوصول الى علمه ، (*) فتراموا اليه خفافا من ثقل ما كانوا عليه

كانت الامم تطلب عقلا في دين فوافاها ، وتتطلع الى عدل في ايمان فأتاها ، فما الذي يحجم بها عن المسارعة الى طلبتها ، والمبادرة الى رغيبتها ? كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التي رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق ، وكان من حكمها أن لا يقام وزن لشؤون الادنين ، متى عرضت دونها شهوات الاعلين ، فجاءدين يحدد الحقوق ،ويسوي بين جميع الطبقات في احترام النفس والدين والعرض والمال ، ويسوغ لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لامير عظيم مطلق السلطان في قطر كبير، وما كان يريده لنفسه ولكن ليوسع به مسجدا، فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع أضعاف قيمته رفعت الشكوى الى الخليفة فورد أمره برد بيتها اليها مع لوم الامير على ما كان منه ? عدل يسمح ليهودي أن يخاصم مثل علي بن أبي طالب أمام القاضي وهو من نعلم من هو! ويستوقفه معه للتقاضي الى أن قضي الحق بينهما، هذا وماسبق بيانه مما جاء به الاسلام هوالذي حببه الى من كانوا أعداءه، ورداليه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه

غلب على المسلمين في كل زمن روح الاسلام فكان من خلائقهم العطف على من جاورهم من غيرهم، ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم الابعد أن يحرجهم الجار فهم كانوا يتعهدونها ممن سواهم، ثم لا يكون الا طائفا يحل ثم يرتحل، فاذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب الى سابق ما ألفته من اللين والمياسرة ، ومع ذلك بل وغفلة المسلمين عن الاسلام وخذلانهم له وسعي الكثير منهم في هدمه بعلم وبغير علم لم يقف الاسلام في انتشاره عند حد، خصوصا في الصين وفي أفريقيا،ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع الى الاخذ بعقائده على بصيرة فيما تنزع اليه : لا سيف وراءها، ولا داعي امامها ، وانما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه، مع قليل

(*) الاول كالجمع بين التثليث والتوحيد والثاني نحو التيسير غير المشكل

من حركة الفكر في العلم بما شرعه، ومن هذا تعلم أن سرعة انتشار الدين الاسلامي واقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة انما كان لسهولة تعقله، ويسر أحكامه وعدالة شريعته، وبالجملة لان فطر البشر تطلب دينا وترتاد منه ما هو أمس بمصالحها وأقرب الى قلوبها ومشاعرها، وأدعى الى الطمأنينة في الدنيا والآخرة، ودين هذا شأنه يجد الى القلوب منفذا، والى العقول مخلصا بدون حاجة الى دعاة ينفقون الاموال الكثيرة والاوقات الطويلة، ويستكثرون من الوسائل، ونصب الحبائل، لاسقاط النفوس فيه — هذا كان حال الاسلام في سذاجته الاولى، وطهارته التي أنشأه الله عليها، ولا يزال على جانب عظيم منها في بعض أطراف الارض الى اليوم

قال من لم يفهم ما قدمناه أو لم يرد أن يفهمه: ان الاسلام لم يطف على قلوب العالم بهذه السرعة الا بالسيف، فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن باحدى اليدين والسيف بالاخرى، يعرضون القرآن على المغلوب فان لم يقبله فصل السيف بينه وبين حياته. سبحانك هذا بهتان عظيم! ما قدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ما تواترت به الاخبار تواترا صحيحا لا يقبل الريبة في جملته وان وقع اختلاف في تفصيله، وانما شهر المسلمون سيوفهم دفاعا عن أنفسهم، وكفا للعدوان عنهم، ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك، ولم يكن من المسلمين مع غيرهم الا أنهم جاوروهم وأجاروهم، فكان الجوار طريق العلم بالاسلام، وكانت الحاجة لاصلاح العقل والعمل داعية الانتقال اليه

لو كان السيف ينشر دينا فقد عمل في الرقاب للاكراه على الدين والالزام به مهددا كل أمة لم تقبله بالابادة والمحو من سطح البسيطة، مع كثرة الجيوش ووفرة العدد وبلوغ القوة أسمى درجة كانت تمكن لها، وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الاسلام بثلاثة قرون كاملة واستمر في شدته بعد مجيء الاسلام سبعة أجيال أو يزيد، فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الاسلام في أقل من قرن. هذا ولم يكن السيف وحده، بل كان الحسام لا يتقدم خطوة الا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاءون تحت حمايته، مع غيرة تفيض من الافئدة، وفصاحة تتدفق عن الالسنة، وأموال تخلب ألباب المستضعفين، ان في ذلك لآيات للمستبصرين،

جلت حكمة الله في أمر هذا الدين : سلسبيل حياة نبع في القفار العربية ، أبعد بلاد الله عن المدنية ، فاض حتى شملها فجمع شملها فأحياها حياة شعبية ملية ، علا مده حتى استغرق ممالك كانت تفاخر أهل السماء في رفعتها ، وتملأ أهل الارض بمدنيتها ، زلزل هديره على لينه ما كان استحجر من الارواح ، فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها . قالوا كان لا يخلو من غلب (بالتحريك) قلنا تلك سنة الله في الخلق لا تزال المصارعة بين الحق والباطل والرشد والغي قائمة في هذا العالم الى أن يقضي الله قضاءه فيه ، اذا ساق الله ريحا الى أرض جدبة ليحيي ميتها ، وينقع غلتها ، وينمي العشب فيها ، أفينقص من قدره أن أتى في طريقه على عقبة فعلاها ، أو بيت رثيم العماد فهوى به ؟

طلع الاسلام على الديار التي بلغها أهله فلم يكن بين أهل تلك الديار وبينه الا أن يسمعوا كلام الله ويفقهوه ، واشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمناً ، وانحرفوا عن طريق الدين أزماناً ، فرقت رقة القائد خذله الانصار وكاد يتزحزح الى ما وراءه ، لكن الله بالغ أمره ، فانحدرت الى ديار المسلمين أمم من التتار يقودها جنكيزخان ، وفعلوا بالمسلمين الافاعيل ، وكانوا وثنيين جاؤا لمحض الغلبة والسلب والنهب ، ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا الاسلام ديناً ، وحملوه الى أقوامهم فعمهم منه ما عم غيرهم : جاؤا لفتوحهم ، فعادوا بفتحهم

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه الا اشترك فيها ، واستمرت المجالدات بين الغربيين والشرقيين أكثر من مائتي سنة جمع فيها الغربيين من الغيرة والحمية للدين ما لم يسبق لهم من قبل ، وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة ما بلغته طاقتهم ، وزحفوا الى ديار المسلمين ، وكانت فيهم بقية من روح الدين ، فتغلب الغربيون على كثير من البلاد الاسلامية وانتهت تلك الحروب الجارفة باجلائهم عنها ، لم جاؤا وبماذا رجعوا ؟ ظفر رؤساء الدين في الغرب ، باثارة شعوبهم ليبيدوا ما يشاؤن من سكان الشرق ، أو يستولوا سلطان تلك الشعوب على ما يعتقدون لانفسهم الحق في الاستيلاء عليه من البلاد الاسلامية ، جاء من الملوك والامراء وذوي الثروة وعلية الناس جم غفير ، وجاء ممن دونهم من

الطبقات ماقدروه بالملايين ، استقر المقام الكثير من هؤلاء في أرض المسلمين ، وكانت فترات تنطفئ فيها نار الغضب وتثوب العقول الى سكينتها تنظر في أحوال المجاورين ، وتلتقط من أفكار المخالطين ، وتتفعل بما ترى وما تسمع ، فتبين أن المبالغات التي أطاشت الاحلام ، وجسمت الآلام لم تصب مستقر الحقيقة ، ثم وجدت حرية في دين ، وعلما وشرعا وصنعة مع كمال في يقين ، وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الايمان لا من العوادي عليه ، ثم جمعت من الآداب ماشاء الله وانطلقت الى بلادها ، قريرة العين بما غنمته من جلادها ، هذا الى ما كتبه الفار من أطراف الممالك الى بلاد الاندلس بمخالطة حكامها وأدبائها ، ثم عادوا به الى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا ، وأخذت الافكار من ذلك العهد تتراسل ، والرغبة في العلم تتزايد بين الفريقين ، ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد ، ونزعت العزائم الى تقييد سلطان زعماء الدين ، والاخذ على أيديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه ، وحرفوا في معناه ، ولم يكن بعد ذلك الا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو الى الاصلاح والرجوع بالدين الى سذاجته ، وجاءت في اصلاحها بما لا يبعد عن الاسلام الا قليلا ، بل ذهب بعض طوائف الاصلاح في العقائد الى ما يتفق مع عقيدة الاسلام الا في التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وان ما هم عليه انما هو دينه يختلف عنه اسما ولا يختلف معنى الا في صورة العبادة لا غير .

ثم أخذت أمم أوربا تفتك من أسرها ، وتصلح من شؤونها ، حتى استقامت أمور دنياها على مثل مادعا اليه الاسلام ، غافلة عن قائدها ، لاهية عن مرشدها ، وتقررت أصول المدنية الحاضرة ، التي تفاخر بها الاجيال المتأخرة ماسبقها من أهل الازمان الغابرة ، — هذا طل من وابل أصاب أرضا قابلة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، جاء القوم ليستفيدوا ، فاستفادوا وعادوا ليفيدوا ، ظن الرؤساء ان في إباحة شعوبهم شفاء غلتهم ، وتقوية ركنهم ، فبادؤا بوضوح شأنهم ، وضعضعة سلطانهم ، وما بناه في شأن الاسلام — ويعرفه كل من تفقه فيه — قد ظفر به كثير من أهل النظر في بلاد الغرب فعرفوا له حقه ، واعترفوا أنه كان أكبر اساتذتهم فيما هم فيه اليوم ، والى الله عاقبة الامور

﴿ ايراد سهل الايراد ﴾

يقول قائلون اذا كان الاسلام انما جاء لدعوة المختلفين الى الاتفاق وقال كتابه ﴿ ٦ : ١٥٩ ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء ﴾ فما بال الملة الاسلامية قد مزقتها المشارب ، وفرقت بين طوائفها المذاهب ؟ اذا كان الاسلام توحيدا فما بال المسلمين عددوا ؟ اذا كان مولیا وجه العبد ، وجهة الذي خلق السموات والارض ، فما بال جمهورهم يولون وجوههم من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ولا يستطيع من دون الله خيرا ولا شرا ، وكادوا يعدون ذلك فصلا من فصول التوحيد ؟ اذا كان أول دين خاطب العقل ودعاه الى النظر في الاكوان ، وأطلق له العنان يجول في مضامرها بما يسعه الامكان ، ولم يشترط عليه في ذلك سوى المحافظة على عقد الايمان ، فما بالهم قنعوا باليسير ، وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم ، ظنا منه أنه قد يرضي الله بالجهل ، واغفال النظر فيما أبدع من محكم الصنع ؟ — ما بالهم وقد كانوا رسل المدنية أصبحوا اليوم وهم يتنسمونها ولا يجدونها ؟ ما بالهم بعد أن كانوا قدوة في الجد والعمل ، أصبحوا مثلا في الجمود والكسل ؟ — ما هذا الذي ألحق المسلمون بدينهم وكتاب الله بينهم يقيم ميزان القسط بين ما ابتدعوه ، وبين ما دعاهم اليه فتركوه ؟ — اذا كان الاسلام في قربه من العقول والقلوب على ما بينت ، فما باله اليوم على رأي القوم تقصر دون الوصول اليه يد المتناول ؟ اذا كان الاسلام يدعو الى البصيرة فيه ، فما بال قراء القرآن لا يقرؤنه الا تغنياء ورجال العلم بالدين لا يعرفه أغلبهم الا تظنيا ؟ — اذا كان الاسلام منح العقل والارادة شرف الاستقلال ، فما بالهم شدوهما الى أغلال أي أغلال ؟ — اذا كان قد أقام قواعد العدل ، فما بال أغلب حكامهم يضرب بهم المثل في الظلم ؟ — اذا كان الدين في تشوف الى حرية الارقاء ، فما بالهم قضوا قرونا في استعباد الاحرار — اذا كان الاسلام يعد من أركانه حفظ العهود والصدق والوفاء ، فما بالهم قد فشا بينهم الغدر والكذب والزور والافتراء ؟ — اذا كان الاسلام يحظر الغيلة ، ويحرم الخديعة ، ويوعد على الغش بأن الغاش ليس من أهله ، فما بالهم يحتالون حتى على الله وشرعه وأوليائه ؟ — اذا كان قد حرم الفواحش ما ظهر منها

وما بطن ، فما هذا الذي نراه بينهم في السر والعلن ، والنفس والبدن ؟

اذا كان قد صرح بأن الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين خاصتهم وعامتهم ، وان الانسان لفي خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، وأنهم ان لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر سلط عليهم شرارهم فيدعو خيارهم فلا يستجاب لهم ، وشدد في ذلك بما لم يشدد في غيره ، فما بالهم لا يتناصحون ولا يتواصون بحق ، ولا يتواصون بصبر ، ولا يتناصحون في خير ولا شر ، بل ترك كل ما حببه وألفى حبله على غاربه ، فعاشوا أفذاذا ، وصاروا في أعمالهم أفرادا ، لا يحس أحدهم بما يكون من عمل أخيه ، كأنه ليس منه ، وكأن لم تجمعه معه صلة ، ولم تضمه اليه وشيجة ؟

ما بال الابناء ، يقتلون الآباء ، وما بال البنات ، يعققن الامهات ؟ أين وشائج الرحمة ؟ أين عاطفة الرحم على القريب ؟ أين الحق الذي فرض في أموال الاغنياء للفقراء ، وقد أصبح الاغنياء يسلبون ما بقي في أيدي أهل البأساء ؟

قبس من الاسلام أضاء الغرب كما تقول ، وضوءه الاعظم وشمسه الكبرى في الشرق وأهله في ظلمات لا يبصرون ! أصح هذا في عقل ، أو عهد في نقل ؟ ألم تر الى الذين تذوقوا من العلم شيئا وهم من أهل هذا الدين أول ما يعلق بأوهام أكثرهم ان عقائده خرافات ، وقواعده وأحكامه ترهات ، ويجدون لذتهم في التشبه بالمستهزئين ممن سموا أنفسهم أحرار الافكار ، وبعداء الانظار ـ والى الدين قصروا همهم على تصفح أوراق من كتبه ، ووسموا أنفسهم بأنهم حفاظ أحكامه والقوام على شرائعه ، كيف يجافون علوم النظر ويهزؤون بها ، ويرون العمل فيها عيبا في الدين والدنيا ، ويفتخر الكثير منهم بجهلها ، كأنه في ذلك قد هجر منكرا وترفع عن دنيئة ؟ فمن وقف على باب العلم من المسلمين يجد دينه كالثوب الخلق يستحي ان يظهر به بين الناس ، ومن غره نفسه بأنه على شيء من الدين وانه متمسك بعقائده ، يرى العقل جنة ، والعلم ظلمة ، أليس في هذا ما يشهد الله وملائكته والناس أجمعين ، على ان لا وفاق بين العلم والعقل وهذا الدين ؟

﴿ الجواب ﴾

ربما لم يبالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم بل من عدة أجيال ، وربما كان ما جاء في الايراد قليلا من كثير ، وقد وصف الشيخ الغزالي رحمه الله وابن الحاج وغيرهما من أهل البصر في الدين ما كان عليه مسلمو زمانهم عامتهم وخاصتهم بما حوته مجلدات ، ولكن قد أتيت في خاصة الدين الاسلامي بما يكفي للاعتراف به بمجرد تلاوة القرآن مع التدقيق في فهم معانيه ، وحملها على مافهمه أولئك الذين أنزل فيهم وعمل به بينهم ، ويكفي في الاعتراف بما ذكرته من جميل أثره قراءة ورقات في التاريخ على ما كتبه محققو الاسلام ومنصفو سائر الامم ، فذلك هو الاسلام .
وقد أسلفنا أن الدين هدى وعقل من أحسن في استعماله والاخذ بما أرشد اليه نال من السعادة ما وعد الله على اتباعه ، وقد جرب علاج الاجتماع الانساني بهذا الدواء فظهر نجاحه ظهورا لا يستطيع معه الاعمى انكارا ، ولا الاصم إعراضا ، وغاية ما قيل في الايراد أن أعطى الطبيب المريض دواء فصح المريض وانقلب الطبيب بالمرض الذي كان يعمل لمعالجته ، وهو يتجرع الغصص من آلامه والدواء في بيته وهو لا يتناوله ، وكثير ممن يعودونه ، أو يتأففون منه ويشمتون لمصيبته ، يتناولون من ذلك الدواء فيبرؤن من مثل مرضه ، وهو في يأس من حياته ، ينتظر الموت أو تبدل سنة الله في شفاء أمثاله . كلامنا اليوم في الدين الاسلامي وحاله على ما بيناه . أما المسلمون وقد أصبحوا بسيرهم حجة على دينهم فلا كلام لنا فيهم الآن ، وسيكون الكلام عنهم في كتاب آخر ان شاء الله

[المنار] جمع الاستاذ الامام رحمه الله في هذا السؤال والجواب جملة مساوي المسلمين المخالفة لهدي الاسلام ، وبين فيهما كليات محاسنه المفصلة في رسالة التوحيد بعض التفصيل ، ووعد ببيان تفصيل هذه المساوي في كتاب آخر ولكنه لم يوفق لكتابته ، على انه جاء في كتاب (الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) بكثير مما أراد من ذلك